© ٢٠١٥ مركز بحوث القرآن
جامعة ملايا، ماليزيا

قرآنيكا، مجلة عالمية لبحوث القرآن
عدد خاص (٧-أ)، أبريل ٢٠١٥م، ص٨٥-١٠٦

دراية الإعجاز عند فخر الدين الرازي(*)

أ.د. ماهر مهدي هلال[١]

ملخص

الإمام فخر الدين الرازي، كان إمام العلم في عصره في علم الكلام وعلم الأصول، وعلم التفسير، وقد أفرد من بين العلوم التي شُهر بها "علم إعجاز القرآن" وألف بذلك كتابا سمّاه "نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز" مخض فيه زبدة آراء سابقيه في الإعجاز وردّها لأنها تعمد إلى جانب من جوانب القرآن ترى فيه إعجازه؛ والإعجاز كينونة في القرآن تطّرد في عموم آياته وسوره؛ وعليه قرر: إن إعجاز القرآن وصف يعمّه ويتواتر من أول آية إلى آخر آية، وفي مبنى سوره ومعانيها وتواشج أواخر السور وأوائل التي تليها وذلك كائن في فصاحة نظمه وتأليفه التي أربت على كل فصاحة وبيان. ولعلّه أول من أبان مصطلح المناسبة في الدراسات القرآنية. ولذلك حوّل دلالة الإعجاز عند سابقيه إلى "درايّة الإعجاز" ويعني ذلك؛ أنه وقف على أسرار العلم بالإعجاز في النظريّة والتطبيق.

كلمات دالّة: دراية الإعجاز، علم الكلام، البلاغة، سور وآيات، إعجاز.

(*)How to cite this artide: Hilal, M. M. (2015). "Dirāyat al I'jāz inda Fakhriddin al Rāzi", *QURANICA* Special Issue 7a, (2015): 85-106.

[١] أ. د. ماهر هلال، أستاذ البلاغة والنقد، الكلية الجامعية، الإمارات العربية المتحدة، dr-maherm@hotmail.com

مقدمة

يتناول البحث الجانب الأهم في الدراسات القرآنية والشاغل الذي أخذ برقاب العلم والعلماء ألا وهو إعجاز القرآن واكتناه بنية اللغة التي خاطب القرآن الكريم الناس بها، وكيف هي معجزة لا يتأتى لأحد أن يحاكيها. ولعل ذروة التحدي كانت لأهل الريبة أهل اللسن والفصاحة والبيان (أن يأتوا بسورة من مثله) وأعقبها بإحكام المواجهة التي أسلمت قيادهم للإذعان (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) وعلى مدى قرون انشغل العلماء بأدواتهم للكشف عن هذا النسق الذي يأخذ الألباب وهذا النظم العجيب الذي تأتلف فيه الألفاظ بملاءمة قدسيّة حتى تكونت (قرآنا عجبا). وأن فخر الدين الرازي (٦٠٦ هـ) إمام الدنيا في عصره ونسيج وحده في علم الكلام وعلم الأصول وعلم التفسير بلغ من شأوه العلمي أن خلعوا عليه (مجدد المائة السادسة للهجرة)، وقد وصف بأنه صاحب منهج عقلي واضح في دراسته للإعجاز ووصف كتابه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) بأنه يمتاز بدقة التفكير وحدة المنطق والقدرة على تشعيب المسائل وتفريعها وحصر أقسامها حصرا يحيط بها إحاطة تامة ويقرر حقيقتها العلمية, واتجه بذلك إلى البلاغة بوصفها مدار الإعجاز القرآني، وقد رتب مسائلها في تقنين علمي هو الأول من نوعه في هذا الفن، وكان له أن يدلي بدلوه في هذا المضمار فيحكم القول في الإعجاز بمصطلح جديد هو (دراية الإعجاز) بعد أن وقف على آراء سابقيه ولا سيما عبد القاهر الجرجاني فناظر تلك الآراء وردّها بالحجة العلمية ليقرر بعد ذلك: "الإعجاز بفصاحة نظم القرآن" وهو السمة التي اتسمت بها بنية آيات القرآن الكريم وعمت سوره وارتقت على كل بيان عرفه أهل البيان وأرباب الشعر والخطباء المصاقع وأثبت ذلك في التطبيق وخص بذلك الإعجاز بالدراية والعلم. والدراية مصطلح دال؛ أراد به علمه بالإعجاز يقال: دريت الشيء، دراية: علمته وأدراه به أعلمه.

وإذا كان نظم القرآن عند عبد القاهر الجرجاني قد تفرد في ما اصطلح عليه بمعاني النحو فقد ذهب الرازي إلى أن معاني النحو تعني فصاحة البنية اللغوية، فربط بين رأيه بأن القرآن معجز بفصاحته، وبين رؤية عبد القاهر بأن القرآن معجز بنظمه وتأليفه، ذلك أنه وجد الفصاحة تطّرد في كل آية وكأن الفصاحة هي النسيج الخفي الذي يظهر النظم ويميّزه، وعليه يقرر الرازي أن البحث في الفصاحة يقتضي البحث في النظم فوضع منهجا تعليميا لدراسة الإعجاز يقوم على مقدمة لدراسة الفصاحة ومحورين أساسيين (بنية المفردات وبيّنة التراكيب)، لقد وقف الرازي موقفا علميا وحوّل مصطلح الإعجاز إلى التطبيق بتفسيره الكبير, وهذه ميّزة لم تتأت لباحث من قبل حيث عضد رؤيته للإعجاز بالتطبيق، فعمد إلى تحليل بنية النظم القرآني الذي اعتمده عبد القاهر وكأنه بذلك يدلل على أن الإعجاز لا يكون في جانب دون جانب

مما ذهب إليه سابقوه، إنما الإعجاز كينونة في بنية النظم القرآني وهذه الكينونة النسقية تبدأ بتمييز المفردة ثم ملاءمتها لما يليها كوصف إفرادي ثم بعد ذلك يحوّل هذا الوصف إلى التركيب بوصفه المولّد الدلالي للمعنى الذي سمّاه عبد القاهر (توخي معاني النحو بين الكلم) ويراد بها (علاقات الإسناد في بنية النص) عند اللسانيين، وهذه العلاقات هي المولّد (لمعنى المعنى) الذي تفرد فيه القرآن الكريم عن كل ما تفرد فيه أهل البيان. وهذا ما اصطلح عليه الرازي بالدراية، وقوله دراية الإعجاز يعني بالمفهوم أنه علم موطن الإعجاز وعرفه، .

التعريف بالرازي

هو ((محمد بن عمر، بن الحسين بن علي الملقب فخر الدين، الرازي المولد"[١]، "القرشي التيمي البكري النسب"[٢] "الطبرستاني الأصل"[٣] ‘‘الفقيه الشافعي"[٤]: ‘‘فريد عصره، ونسيج وحده"[٥].وقد كان يعرف بـ "ابن الخطيب" و"ابن خطيب الري"[٦] كناية عن والده "ضياء الدين عمر" الذي كان خطيبا (للري) ومن ثم توليته الخطابة من بعده[٧]... وربما اقتصر بعض المؤرخين عليها[٨]وهو "الإمام"[٩] و"فخر الدين"[١٠] عند علماء الأصول. ومن ثم لقب في أخريات حياته بـ "شيخ الإسلام"[١١]. وقد كان لقبه ((الإمام)) هو الشائع في حياته، وابن خلدون لا يذكره إلا

---

١ القفطي. (١٩٠٣). **تاريخ الحكماء**. طبعة لايبزك، ص ٢٩٢؛ وانظر: ابن خلكان. (١٩٤٨). **وفيات الاعيان**. مطبعة السعادة، ٣٨١/٣؛ وابن كثير. **البداية والنهاية**. ٥٥/١٣،

٢ التيمي نسبة إلى (بنو تيم) بطن من قريش، منهم ابو بكر الصديق (رض). انظر: القلقشندي. **نهاية الارب في معرفة انساب العرب**. ١٩٠؛ وانظر: السيوطي. **طبقات المفسرين**. ٣٩، وقد ورد في روضات الجنات ٦٩٩ وهدية العارفين ١٠٧/٢ التميمي وهو خطأ من النسخ أو الطباعة.

٣ ، الصفدي. (١٩٦١م). **الوافي بالوفيات**. القاهرة: ٢٤٨/٤.

٤ ابن خلكان. **وفيات الاعيان**. ٣٨١/٣؛ وانظر:ابن كثير. **البداية والنهاية**. ٥٥/١٣

٥ ابن خلكان. **وفيات الاعيان**. ٣٨١/٣.

٦ ابن أبي أصيبعة. **عيون الانباء**. ٣٤/٣؛ وابن الأثير. **تاريخ الكامل**. ١٣٣/١٢.

٧ السبكي. **طبقات الشافعية**. ٢٨٥/٤؛ وينظر: عماد الدين. **المختصر في أخبار البشر**. ١١٢/٣.

٨ ابن خلدون. (١٩٢٨م). **مقدمة ابن خلدون**. ٤٥٥، ٤٦٦، ٤٩٢، ٤٩٥.

٩ ابن أبي أصيبعة. **عيون الانباء**.٣٤/٣؛ والسيوطي. **طبقات المفسرين**. ٣٩، الكنى والالقاب ١٠/٣.

١٠ ابن كثير. **البداية والنهاية**. ٥٥/١٣.

١١ ابن خلكان. **وفيات الاعيان**. ٣٨١/٣؛ اليافعي. **مرآة الجنان**. ٨/٤.

بهذا اللقب[١] ولعل شهرته به كانت تغني عن ذكر اسمه. يقول السبكي: ((أما ما اشتهر به فابن الخطيب والإمام))[٢].

ولد الإمام فخر الدين ((بالري))[٣] يقول ابن خلكان: "كانت ولادة فخر الدين في الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة أربع وأربعين، وقيل ثلاث وأربعين وخمسمائة بالري"[٤]. يقول ابن هداية: ((ولد بالري في العشر الأخير من شهر رمضان سنة أربع وأربعين وخمسمائة بالري))[٥].

وذكر الرازي عند تفسيره الآية الكريمة: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (يوسف ٤٢) أنه بلغ السابعة والخمسين، يقول: ((وإذا عول العبد على الله ولم يرجع إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه فهذه التجربة التي استمرت لي من أول عمري إلى هذا الوقت الذي بلغت فيه السابع والخمسين))[٦]. وقال في ختام تفسير السورة ((تم تفسير هذه السورة بحمد الله تعالى يوم الأربعاء السابع من شعبان... سنة إحدى وستمائة))[٧]. كما أنه ذكر عقب الانتهاء من تفسير كل من سورتي يونس وهود أنه تم تفسيرهما في رجب سنة إحدى وستمائة[٨]، وهذا يبعد أن يكون قد ابتدأ تفسير سورة يوسف قبل هذا التاريخ، لنخلص من هذا أنه في سنة ٦٠١ هـ كان في السابعة والخمسين من عمره، فإذا أضفنا ذلك إلى تاريخ الميلاد سنة ٥٤٤ هـ كان التاريخ

---

١ ابن خلدون. **مقدمة ابن خلدون**. ٤٦٦، ٤٩٢.

٢ السبكي. **طبقات الشافعية**. ٣٦/٥.

٣ الري: بفتح الراء وتشديد الياء، مدينة مشهورة من امهات البلاد وأعلام المدن... والري مدينة ليس بعد بغداد في المشرق اعمر منها وقد دخلها العرب في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) بعد فتح نهاوند بشهرين وذلك في سنة ٢٠ هـ وقيل في سنة ١٩ هـ. انظر: معجم البلدان ٣٠٥/٤، ٣٥٦، ٣٥٧. وقال الخوانساري: بانها الان خراب، ينسب اليها الامام العلامة فخر الدين ابو عبد الله محمد بن عمر الرازي. انظر: روضات الجنات ٧٠١.

٤ ابن خلكان. **وفيات الاعيان**. ٤٣٨/٣؛ اليافعي. **مرآة الجنان**.١١/٤.

٥ السبكي. **طبقات الشافعية**. ٨٢. ويقول ابن حجر العسقلاني: ((مولده سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة في رمضان)) ينظر: لسان الميزان ٤٢٦/٤.

٦ الرازي. (١٩٣٨م). **التفسير الكبير**. مصر: المطبعة البهية، ١٤٥/١٨.

٧ المصدر السابق: ٢٢٩/١٨.

٨ المصدر السابق: ١٧٦/١٧، ٨٢/١٨.

الحاصل هو السنة التي أتم فيها تفسير سورة يوسف... وهذه دلالة واضحة أن تاريخ ولادته هو سنة ٥٤٤ هـ[١].

علمه وتعليمه

تلقى الرازي، رعاية النشأة العلمية على يد والده ((ضياء الدين عمر)) المعروف بخطيب الري. وقد أثنى عليه ابن أبي أصيبعة بقوله: "كان الشيخ الإمام ضياء الدين عمر والد الإمام فخر الدين من الري، وتفقه واشتغل بعلم الخلاف والأصول حتى تميز تميزا كبيرا، وصار قليل المثل، وكان يدرس بالري ويخطب في أوقات معلومة هناك ويجتمع عنده خلق كثير لحسن ما يورده وبلاغته"[٢].

وعندما اكتمل علم الرجل، ومهر في العلوم، بدأ أسفاره على عادة العلماء المسلمين، مناظراً ومجادلاً... فجاب البلاد وناظر العلماء، وكانت أولى تلك الرحلات، إلى خوارزم (فجرت بينه وبين المعتزلة مناظرات أدت إلى خروجه منها))[٣]. وحفلت رحلاته وأسفاره بأحداث مثيرة، ومناظرات ومناقشات عنيفة مع مختلف المذاهب، بلغت ذروتها مع المعتزلة و ((الكرامية))[٤] وفي مدينة (هراة) ينتهي تطواف الرازي، بعد حل وترحال دام أكثر من عشرين سنة[٥]. وفي مدينة (هراة) استوطن ولقب فيها بشيخ الإسلام... وأقام بها حتى مات[٦]... وكان للرازي إلى جانب

---

١ فخر الدين الرازي. (١٩٦٩م). **العماري**. مصر: مطابع شركة الإعلانات الشرقية، ١٧.

٢ ابن أبي أصيبعة. **عيون الانباء**.٣٧/٣.

٣ المصدر السابق: ٣٥/٥.

٤ (الكرامية) وهم اتباع ابي عبد الله محمد بن كرام، وهم يعتقدون أن الله تعالى جسم وجوهر ومحل للحوادث ويثبتون له جهة ومكانا. ((اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ٦٧))

٥ يذكر ابن العبري أنه قصد بخارى في رحلته الثانية في حدودسنة ثمانين وخمسمائة، ويذكر الدكتور فتح الله خليف أنه قصد (هراة) في نهاية مطافه في حدودسنة ٦٠٠ هـ/ ١٢٠٣ م. وبهذا تكون رحلاته قد دامت ما يقارب من عشرين عاماً.

٦ السبكي. **طبقات الشافعية**.٣٥/٥؛ تاريخ مختصر الدول ٢٤٠، وابن خلكان. **وفيات الأعيان**. ٢٨١/٣.

و ((هراة)) بفتح الهاء، مدينة عظيمة مشهورة، قال ياقوت الحموي في وصفها"((لم أر بخراسان عند كوني بها سنة ٦٠٧ مدينة أجل ولا أعظم ولا أفخر ولا أحسن ولا أكثر أهلاً منها، بساتين كثيرة ومياه غزيرة، وخيرات كثيرة محشوة بالعلماء)). معجم البلدان ٤٥١/٨. ويصف المقدسي أهل هراة بأنهم ((أهل أدب وبلاغة وظرف ودراية)). ينظر: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٣٠٧.

اشتغاله بالعلوم شيء من النظم[١]. ويذكر الصفدي أن (له شعر بالعربي ليس في الطبقة العليا ولا السفلى))[٢] ويقول عنه ابن هداية "(وكان رحمه الله ذا شعر جيد))[٣].

وفاته

يقول ابن خلكان: وقد اختلفت المصادر في تحديد يوم وفاته، فقد ذكر ابن خلكان أنه توفي يوم الاثنين، وكان عيد الفطر سنة ست وستمائة بمدينة هراة[٤]. وقيل أنه توفي في ذي الحجة من السنة نفسها[٥]. وأصحاب القول بوفاته بذي الحجة لم يحددوا اليوم وموقعه من الشهر، بينما يذهب أصحاب القول الأول إلى تحديد يوم الاثنين أول عيد الفطر، ((ولعل وجود العيدين في شهري شوال وذي الحجة وكون الرازي توفي يوم العيد قد حمل بعض المؤرخين على الاعتقاد أنه مات في ذي الحجة))[٦].

دراية الإعجاز مصطلحا

الدراية: العلم وفي معاجم اللغة: دري الشيء دراية ؛ علمه، قال سيبويه: الدرية. على معنى الحال ؛أي اطراد المعرفة. ويقال دريت به دراية :علمت به؛ ودريت الشيء أدريه: عرفته .

والدراية اصطلاحا: تعني مطلق العلم ؛ أي العلم الباحث عن الأصول بدقة وإمعان وتداولها في آثار العلماء وتقرير حدودها المعرفية .وعلم الدراية عند أهل الحديث؛ علم يعرف فيه حقيقة الرواية وشروطها، وأنواعها،وأحكامها. والرازي أول من قرن الدراية بالإعجاز. من المفسرين وعلماء الأصول . والإعجاز لغة : الضعف، وهو ضد القدرة، وأعجزه الشيء: فاته، وأعجزت فلانا وعجّزته وعاجزنه: جعلته عاجزا[٧].

والإعجاز اصطلاحا: أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة... ((ومن الصعب جدا أن نحدد الزمن أو المكان أو الأثر الذي استعملت فيه كلمة معجزة او إعجاز أول

---

١ اليافعي. **مرآة الجنان**.٤/١٠.

٢ الوافي بالوفيات ٤/٢٤٩.

٣ ابن هداية. **طبقات ابن هداية**.٨٣.

٤ ابن خلكان. **وفيات الأعيان**. ٣/٣٨٤؛ ابن أبي أصيبعة. **عيون الانباء**.٣/٤٠؛ اليافعي. **مرآة الجنان**. ٤/٨؛ ابن حجر. **لسان الميزان**. ٤/٤٢٧.

٥ ابن كثير. **البداية والنهاية**. ١٣/٥٥.

٦ الزركان، محمد صالح. **فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية**. بيروت: دار الفكر،٣٠.

٧ انظر: ابن حجر. **لسان الميزان**. جـ ٧/ ٢٣٦.

مرة بهذا المعنى الديني الاصطلاحي الفني)).[١] ((وقد استأثرت دراسات إعجاز القرآن ومعرفة وجوه هذا الإعجاز بقسط كبير من الدراسات القرآنية التي بدأت طلائعها في أوائل القرن الثاني الهجري))[٢].ولكن الدكتور حفني محمد شرف يحدد نهاية القرن الثاني الهجري بداية للحديث في إعجاز القرآن واختلاف الآراء فيه[٣].

والقرآن الكريم معجز، لأنه قد تحدى العرب، ولم يُعارض وقد تساءل العرب مجتمعين منذ البداية، ما السر في قوله: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء ٨٨) غير التحدي الذي لم يتأت لهم، وهم أصحاب البيان. وآية المعجز ورايته المرفوعة كان من جنس ما أَلِفوا وعُرِفوا.

وقد تدرج القرآن في تحديه بين العشر سور والسورة الواحدة[٤]، فأوقف هذا التحدي العرب حيارى، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة والبيان... وحيال هذا الأمر تدبر كل ذي رأي رأيه، واستبصر القرآن وأمعن وأدرك... فتواترت الآراء في إعجازه وتباينت... ونسوق باختصار ما قيل في الإعجاز قبل الرازي أولا، للاستبيان والهدي... ومن ثم نأتي لما قرره الرازي لنفصل أصول درايته النقلية والعقلية وتطبيق تلك الأصول في تفسيره الكبير .

كان المعتزلة من اوائل الذين بحثوا في الإعجاز ومن أشهرهم إبراهيم النظّام[٥]، القائل بمذهب الصَّرفة، ((وهي أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها فكان هذا الصرف خارقا للعادة))، وكأنه برأيه هذا يرى الصرف هو المعجز، لا القرآن نفسه... ويرى غيره، رأيا آخر في الإعجاز وهو أن القرآن إنما أعجز العرب لما فيه من الإخبار عن الأمور الماضية والآتية[٦]. والجاحظ هو رأس من رؤوس المعتزلة، ورأيه في هذا الباب مشهور، يتلخص في مذهبين اثنين: القول بالصرفة، والقول بإعجاز الأسلوب[٧].

---

١ الحمصي. نعيم. (١٩٥٥م). **تاريخ فكرة الإعجاز**. ٣.

٢ حويش، عمر الملا. (١٩٧٢م). **تطور دراسات إعجاز القرآن**. مطبعة الأمة، ٢١٩.

٣ حفني، محمد شرف. (١٩٧٠). **إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق**. مطابع الأهرام التجارية، ٧.

٤ انظر: البقرة، آية ٢٣؛ وهود آية ١٣؛ ويونس، آية ٣٨.

٥ هو ابو اسحاق، ابراهيم بن سيّار بن هانئ البصري النظّام، من أئمة المعتزلة، توفي سنة ٢٣١ هـ.

٦ الحمصي. نعيم. (١٩٥٥م). **تاريخ فكرة الإعجاز**. ٥٢. وانظر: صادق الرافعي، مصطفى. **اعجاز القرآن والبلاغة النبوية**. ١٦٤؛ و مطلوب، أحمد. **البلاغة عند السكاكي**. ٢٧١.

٧ الحمصي. نعيم. (١٩٥٥م). **تاريخ فكرة الإعجاز**. ٥٣؛ والجويني، مصطفى. (١٩٥٩). **منهج الزمخشري في تفسير القرآن**، القاهرة: دار المعارف، ٢٠٦.

وللباقلاني ثلاثة وجوه لإعجاز القرآن الكريم...
أحدها: تضمنه الإخبار بالمغيبات وهي مما لا يقدر عليه البشر ولا سبيل لهم إليه.
ثانيها: أميّة الرسول صلى اللّه عليه وسلم فمن أين لرجل لا يقرأ ولا يكتب معرفة ما وقع من عظائم الأمور ومهمات السير من حين خلق آدم حتى حينه مع أنه لا يعرف شيئا في كتب المتقدمين؟...
ثالثها: وهو أن القرآن الكريم بديع النظم، عجيب التأليف، متناه في البلاغة إلى حد كبير، فوق مستوى البشر أجمعين...))[١].

جاء الرازي، وكل هذه الآراء في إعجاز القرآن، مطروحة أمامه على بساط البحث فأجال الطرف فيها، فوجد ((أن العرب تحدوا إلى معارضته ولم يأتوا بها، ولولا عجزهم لكان محالا ان يتركوها ويتعرضوا لطعن الأسنة ويقتحموا موارد الموت...))[٢].

وقد أورد آراء من سبقه في الإعجاز ((ولكنه لا يتخذ موقف الناقل بقدر ما يتمثل موقف العالم الناقد))[٣] وليدل على درايته قال: ((وأما وجه كونه معجزا فللناس فيه أربعة مذاهب:
أولا: مذهب الصرفة: قال: قال النظام إن الله تعالى ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام. والعرب إنما لم يعارضوه، لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك وسلب علومهم به)).
ولكن الرازي لا يرتضي هذا الرأي ويرده بقوله: ويدل على فساد ذلك من وجوه ثلاثة:
الأول: إن عجز العرب عن المعارضة لو كان لأن الله أعجزهم عنها بعد أن كانوا قادرين عليها لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن بل كان يجب ان يكون تعجبهم من تعذر ذلك عليهم بعد ان كان مقدورا... ولما علمنا بالضرورة أن تعجب العرب كان من فصاحة القرآن نفسها بطل ما قاله النظام.
الثاني: وهو أنه لو كان كلامهم مقاربا في الفصاحة قبل التحدي لفصاحة القرآن لوجب أن يعارضوه بذلك، ولكان الفرق بين كلامهم بعد التحدي وكلامهم قبله كالفرق بين كلامهم بعد التحدي وكلامهم قبله وبين القرآن ولما لم يكن كذلك بطل ذلك.

---

١ حفني، محمد شرف. **اعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق**. ٧٦-٧٧.
٢ الرازي. **نهاية الايجاز**. ٥. وهذا القول اجمال لقول الجرجاني، ينظر: دلائل الاعجاز ٣٢.
٣ حفني، محمد شرف. **إعجاز القرآن البياني**. ١٠٦.

الثالث: إن نسيان الصيغ المعمولة في مدة يسيرة يدل على زوال العقل. ومعلوم أن العرب ما زالت عقولهم بعد التحدي فبطل ما قاله النظام[١].

ثانيا: أسلوب القرآن

قال: ((ومن الناس من جعل الإعجاز في أن أسلوبه مخالف لأسلوب الشعر والخطب والرسائل ولا سيما في مقاطع الآيات))... وهذا الوجه يبطله الرازي أيضا ويدلل لذلك بخمسة اوجه:

الأول: لو كان الابتداء بأسلوب معجزا لكان الابتداء بأسلوب الشعر معجزا.

الثاني: إن الابتداء بأسلوب لا يمنع الغير من الإتيان به.

الثالث: إن الذي تعاطاه مسيلمة من الحماقة... في أعلى مراتب الفصاحة.

الرابع: إنه لما فاضلنا بين قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[٢] وبين قولهم ((القتل انفى للقتل)) لم تكن المفاضلة بسبب الوزن، والإعجاز إنما يتعلق بما به ظهرت الفضيلة.

الخامس: ((وهو أن يصف بعض العرب القرآن بأنه له حلاوة وأن عليه لطلاوة، ولا يليق بالأسلوب)).

ثالثاً: قال: ومنهم من جعل الإعجاز في أنه ليس فيه اختلاف وتناقض، ويبطله الرازي ايضا بقوله: ((لأن التحدي كما وقع بالقرآن كلّه فقد وقع بالسورة. وقد يوجد في خطبهم ما مقداره مقدار سورة الكوثر ولا يكون فيه اختلاف متناقض)).

رابعاً: قال: ومنهم من قصر وجه الإعجاز على اشتماله على الغيوب وهذا باطل عنده أيضا ((لأن التحدي قد وقع بكل سورة والإخبار عن الغيوب لم يوجد في كل سورة))[٣].

وبعد أن سرد الرازي هذه الوجوه الأربعة وبيّن فيها وجه الخطأ، وأبطلها بحججه العقلية، قال: ((ولما بطلت هذه المذاهب ولابد من أمر معقول حتى يصح التحدي به ويعجز الغير عنه ولم يبق وجه معقول في الإعجاز سوى الفصاحة، علمنا أن الوجه في كون القرآن معجزا هو الفصاحة)) وأكد رأيه هذا بعد الانتهاء من تفسير سورة البقرة قال: ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن (معجز بفصاحة ألفاظه وشرف معانيه... ولعل الذين قالوا: إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك)[٤].

---

١ الرازي. **نهاية الايجاز**. ص ٥-٦.

٢ سورة البقرة، آية ١٧٩ وينظر المفاضلة بين الآية وهذا القول في: الإعجاز والايجاز للثعالبي ١٢.

٣ الرازي. **نهاية الايجاز**. ٧.

٤ الرازي. **التفسير الكبير**. ١٠٦/٣

ومن المهم الإشارة إلى أن معالجته لقضية الإعجاز في التفسير الكبير تتسم بروح التأمل والتبصر، ويبدو واضحا عمق إدراكه لمعنى الإعجاز، ويدل دلالة واضحة على نضوج أحكامه العقلية، لاسيما وأنه فسر القرآن الكريم في وقت تمكن فيه من وسائل المعرفة التي ظهرت جليّة واضحة في تعزيز رأيه الذي قرره؛ بأن: الفصاحة هي المقوّم لبنيّة (نظم القرآني البياني)، وأقام الدليل العلمي وبالحجة العقلية، على (درايته بهذه المقومات)، فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ (البقرة ٢٣)[١]، ((ولما كانت نبوة محمد ^ مبنية على كون القرآن الكريم معجزا أقام الدلالة على كونه معجزا واعلم أن كونه معجزا يمكن بيانه من طريقين:

الأول: أن يقال: إن هذا القرآن لا يخلو حاله من أحد وجوه ثلاثة: أما أن يكون مساويا لسائر كلام الفصحاء أو زائدا على سائر كلام الفصحاء بقدر لا ينقض العادة، أو زائدا عليه بقدر ينقض العادة؛ والقسمان الأولان باطلان فتعين الثالث. وإنما قلنا أنهما باطلان لأنه لو كان كذلك لكان من الواجب أن يأتوا بمثل سورة منه أما مجتمعين أو منفردين فإن وقع التنازع وحصل الخوف من عدم القبول فالشهود والحكام يزيلون الشبهة وذلك نهاية في الاحتجاج لأنهم كانوا نهاية في معرفة اللغة والاطلاع على قوانين الفصاحة في الغاية وكانوا في محبة إبطال أمره في الغاية، حتى بذلوا النفوس والأموال وارتكبوا ضروب المهالك والمحن وكانوا في الحمية والأنفة على حد لا يقبلون الحق فكيف الباطل وكلّ ذلك يوجب الإتيان بما يقدح في قوله والمعارضة أقوى القوادح، فلما لم يأتوا بها علمنا عجزهم عنها فثبت أن القرآن لا يماثل قولهم، وأن التفاوت بينه وبين كلامهم ليس تفاوتا معتادا فهو إذن تفاوت ناقض للعادة فوجب أن يكون معجزا، فهذا هو المراد من تقرير هذه الدلالة)).

ويعرض دليلا آخرا من أدلة التحدي بفصاحة القرآن بقوله: ((واعلم ...فإنه في الفصاحة بلغ النهاية التي لا غاية لها وراءها فدل ذلك على كونه معجزا، أحدهما: إن فصاحة العرب أكثرها في وصف مشاهدات مثل وصف بعير أو فرس أو جارية أو ملك أو ضربة أو طعنة أو وصف حرب أو وصف غارة وليس في القرآن من هذه الأشياء شيء. وكان يجب أن لا تحصل فيه الألفاظ الفصيحة التي اتفقت العرب عليها في كلامهم.

وثانيها: إنه تعالى راعى فيه طريقة الصدق وتنزه عن الكذب في جميعه وكل شاعر ترك الكذب والتزم الصدق نزل شعره ولم يكن جيدا ألا ترى أن لبيد بن ربيعة وحسان بن ثابت لما أسلما نزل

---

١ المصدرالسابق. جـ ٢/ ١١٥-١١٦.

شعرهما. ولم يكن شعرهما الإسلامي في الجودة كشعرهما الجاهلي، وأن الله تعالى مع ما تنزه عن الكذب والمجازفة جاء بالقرآن فصيحا كما ترى.

وثالثها: إن الكلام الفصيح والشعر الفصيح إنما يتفق في القصيدة في البيت والبيتين، والباقي لا يكون كذلك، وليس كذلك القرآن لأن القرآن كلّه فصيح بحيث يعجز الخلق عنه كما عجزوا عن جملته.

ورابعها: إن كل من قال شعرا فصيحا في وصف شيء فإنه إذا كرره لم يكن كلامه الثاني في وصف ذلك الشيء بمنزلة كلامه الأول وفي القرآن التكرار الكثير ومع ذلك كل واحد منها في نهاية الفصاحة ولم يظهر التفاوت أصلا.

وخامسها: إنه اقتصر على إيجاب العبادات وتحريم القبائح والحث على مكارم الأخلاق وترك الدنيا واختيار الآخرة وأمثال هذه الكلمات توجب تقليل الفصاحة.

وسادسها: إنهم قالوا إن شعر امرئ القيس يحسن عند الطرب وذكر النساء وصفة الخيل، وشعر النابغة عند الخوف، وشعر الأعشى عند الطرب ووصف الخمر، وشعر زهير عند الرغبة والرجاء وبالجملة فكل شاعر يحسن كلامه في فن فإنه يضعف كلامه في غير ذلك الفن، أما القرآن فإنه جاء فصيحا في كل الفنون على غاية الفصاحة، ألا ترى أنه سبحانه قال في الترغيب: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ وقال في الترهيب: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ وقال: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ وقال في الزجر ما لا يبلغه وهم البشر وهو قوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ﴾... وقال في الوعظ ما لا مزيد عليه ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾، وقال في الإلاهيات ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾.

وسابعها: إن القرآن أصل العلوم كلها فعلم الكلام كلّه في القرآن وعلم الفقه كلّه مأخوذ من القرآن، وكذلك علم أصول الفقه، وعلم النحو واللغة وعلم الزهد في الدنيا وأخبار الآخرة، واستعمال مكارم الأخلاق.

وبجانب هذا الرأي أورد وجها آخر بقوله: ((الطريق الثاني أن نقول: القرآن لا يخلو أما أن يقال إنه كان بالغا في الفصاحة إلى حد الإعجاز أو لم يكن كذلك، فإن كان الأول ثبت أنه معجز، وإن كان الثاني كانت المعارضة على هذا التقدير ممكنة فعدم إتيانهم بالمعارضة مع كون المعارضة ممكنة ومع توفر دواعيهم على الإتيان بها أمر خارق العادة فكان ذلك معجزا فثبت أن القرآن معجز على جميع الوجوه وهذا الطريق عندنا أقرب الى الصواب))[1].

---

١ الرازي. **التفسير الكبير**. جـ ٢/ ١١٦.

ورأى بعض الباحثين في قوله الأخير ميلا إلى الصرفة، فقد قال الدكتور حفني محمد شرف: ((والرازي وإن تكلم عن هذا المذهب في (نهاية الإيجاز) ولم نفهم منه مبلغ رضائه عنه إلا أنه في التفسير ناقض نفسه وارتضاه))[١].

والراجح، أن الرازي في ((نهاية الايجاز)) أبطل القول بالصرفة صراحة ولم يرتض أيما وجه من أوجه الإعجاز غير الفصاحة، والدكتور حفني محمد شرف نفسه يؤكد هذه الحقيقة بقوله: ((كما لاحظنا أن الرازي ينظر إلى الإعجاز من ناحية واحدة ويبطل ما عداها، وبذلك وقع فيما وقع غيره من السابقين حين قدموا وجها ارتضوه وأبطلوا غيره من عدة وجوه))[٢].

كما أن عبارة الرازي واضحة ولا يفهم منها أنه ارتضى مذهب الصرفة فهو يقول: إن كان الأول أي إن كان بالغا في الفصاحة حد الإعجاز... فهو معجز... وهذا رأيه... وإن كان الثاني... اي إن لم يكن كذلك... أي إن لم يبلغ في الفصاحة حد الإعجاز فالمعارضة عندها ممكنة ولكنهم لم يأتوا بها ولم يستطيعوا؛ وعليه فإن التقدير الثاني لم يحصل لأن الرازي أثبت أن القرآن بالغ في الفصاحة حد الإعجاز، وعلى هذا فلا تناقض في قوله على هذا الاساس.

ومن الوجوه التي يضيفها الرازي إلى الفصاحة، إعجاز القرآن من حيث المعنى أيضا فكثيرا ما نجده يتكلم حول معاني الآيات وترتيبها وتناسقها ومنطقيتها في التدرج، فيصرح إن الإعجاز يشمل المعاني كما يشمل الألفاظ فهذه المعاني كاملة لا اختلاف فيها ولا عوج، ولا تقديم ولا تأخير، فمراعاة مظاهر الوجود والحياة موجودة فيها وهي لذلك معجزة قال: ((ومن وقف على هذا التفصيل الذي ذكرناه علم أن هذا الكتاب الكريم كما أنه معجز بحسب ألفاظه فهو أيضا معجز بحسب معانيه))[٣].

يذكر الرازي إخبار القرآن بالغيوب من وجوه الإعجاز في كتابه (نهاية الإيجاز) ويؤكد ذلك في اكثر من موضع في تفسيره وهذا الوجه من وجوه الإعجاز كان قد أبطله ولم يرتضيه .ولكنه في التفسير عدّه من (دلائل النبوة) وبذلك يكون قد ميّز بين الإعجاز كخاصية للقرآن الكريم وبين دلائل النبوة التي اختصه اللّه بها التي لا تتأتى لبشر غيره وتؤكد صدق نبوته ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (البقرة ٤٣) قال: ((وحكى الأصم عن بعضهم إنه إنما أمر الله تعالى بني اسرائيل بالزكاة لأنهم كانوا لا يؤتون الزكاة وهو المراد

---

١ حنفي. **إعجاز القرآن البياني**. ١١٠. ونقل الدكتور محسن عبد الحميد في كتابه ((الرازي مفسرا)) رأيا مماثلا للأستاذ علي محمد حسين، عن مذهب الرازي في الإعجاز. انظر: محسن، عبد الحميد. **الرازي مفسرا**. ٢٣٤.

٢ المصدر السابق. ١١١.

٣ الرازي. **التفسير الكبير**. جـ ١٧/ ١٩٢. وانظر: محسن، عبد الحميد. **الرازي مفسرا**. ٢٣٣.

بقوله تعالى ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ فأظهر الله تعالى في هذا الموضع ما كان مكتوما ليحذروا ان يفضحهم في سائر اسرارهم ومعاصيهم فيصير هذا كالإخبار عن الغيب الذي هو أحد دلائل نبوة محمد ﷺ))[١]

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ (البقرة ٦١) قال: ((أما قوله (المسكنة) فالمراد به الفقر والفاقة وتشديد المحنة)) فهذا الجنس يجوز أن يكون كالعقوبة، ومن العلماء من عدّ هذا من باب المعجزات لأنه عليه السلام أخبر عن ضرب الذلة والمسكنة عليهم ووقع الأمر كذلك فكان هذا اخبارا عن الغيب فيكون معجزا))[٢].

وقد وجدت الإشارة إلى أن الإخبار عن الغيوب من وجوه الإعجاز، في اكثر من موضع[٣]، ولكنه لا يذكر بأنه الوجه الذي يرتضيه إنما الذي اعتقده أن البعض من هذه الآيات يوافق بعض وجوه الإعجاز فهو يميل إلى الجانب الذي يرى فيه من الاستدلال ما يثبت وجه الإعجاز بالدليل الأقوى، وقد وجدت في قوله ما يؤيد هذا الاعتقاد فهو يقول: ((إنه ليس غرضنا من قولنا أنه معجز إن هذا الإخبار وحده معجز بل غرضنا أن القرآن يشتمل على كثير من هذا النوع والإخبار عن الاشياء الكثيرة على سبيل التفصيل))[٤].

وهذا يعني أن الإعجاز يتمثل في وجوه كثيرة يحكمها أن الإنسان عاجز عن العلم بها أو الإتيان بمثلها وجامع العلم بهذه الوجوه هو الدراية بأنها من جزئيات العلم الكلي للإعجاز الذي يطرد من أول آية في القرآن إلى خاتمة آياته والذي لم يتأتَّ للإنس والاجن أن يأتوا بآية مثلها،ولما كانت الآية هي مدار التحدي فكان العلم ببنيتها هو دراية سر إعجازها الذي أثبته الرازي،بعد هذا السجال العلمي في النظرية والتطبيق بقوله: (اختلف الناس في الوجه الذي لأجله كان القرآن معجزا فقال بعضهم: هو الفصاحة؛ وقال بعضهم هو الأسلوب، وقال ثالث: هو التناقض؛ وقال رابع: هو اشتماله على العلوم الكثيرة؛ وقال خامس: هو الصرف؛ وقال سادس: هو اشتماله على الإخبار عن الغيوب، والمختار عندي وعند الأكثرين؛ أنه معجز بسبب الفصاحة واستدل على ذلك بآية التحدي (هود ١٣) قال لأنه لو كان وجه الإعجاز هو كثرة العلوم أو الإخبار عن الغيوب أو عدم التناقض لم يكن لقوله (مفتريات) معنى أما إذا كان وجه الإعجاز هو الفصاحة؛ صح ذلك لأن فصاحة الفصيح تظهر بالكلام سواء كان

---

١ المصدر السابق. جـ ٣/٤٥،

٢ المصدر السابق. جـ ٣/ ١٠٢،

٣ المصدر السابق. جـ ٦/ ٢٠٩. وينظر: جـ ١٤/ ١٤٧، جـ ٩/ ١٦٠،كما ينظر جـ ١٠/ ١١٩، جـ ١١/ ١٨٩.

٤ المصدر السابق. جـ ٤/ ٩٥.

الكلام صدقا أو كذبا؛ وأيضا لو كان الوجه في كونه معجزا هو الصرف لكان دلالة الكلام الركيك النازل في الفصاحة على هذا المطلوب أوكَدُ من دلالة الكلام العالي في فصاحته.

يرى الرازي أن جوهر النظم البياني للقرآن وبلوغه درجة الإعجاز بفصاحة ألفاظه وشرف معانيه ((أنه معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته)) ورأى أن الذين قالوا بأنه معجز بأسلوبه أرادوا النظم بعينه، ولكنه يقول: ((إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الامور))[١].

لذلك فقد اعتنى الرازي بتطبيق نظرية النظم، لبيان الوجه البلاغي في ترتيب السور واستدل بها إلى جانب الفصاحة في قضية الإعجاز. وهذا ما لم يصرح به عبد القاهر، ولا المفسرون الذين سبقوه. فالقاضي عبد الجبار، والزمخشري، وغيرهما من مفسري المعتزلة كانوا يذكرون أحيانا سبب مجيء آية بعد آية ولكنهم لم يتخذوا منه موضوعا قائما بذاته. ولم يحاولوا أن يربطوا آيات القرآن من هذه الناحية ربطا بلاغيا، ولم يسمّوا هذا نظما وإنما كانوا يفضلون استعمال الفصاحة عموما[٢].

ويدافع الرازي عن وحدة النظم في القرآن الكريم بوصفه السمة المحسوسة للفصاحة المتواترة في بنية النص القرآني الذي لا يماثله نص عند أهل البيان ويثبت ذلك بالحجة القاطعة، من خلال بيانه لترابط ترتيب الآيات، فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ (فصلت ٤٤). "نقلوا في سبب نزول هذه الآية أن الكفار لأجل التعنت قالوا: لو نزل القرآن بلغة العجم؟ فنزلت هذه الآية. وعندي: أن أمثال هذه الكلمات فيها حيف عظيم على القرآن، لأنه يقتضي ورود آيات لا تعلق للبعض فيها بالبعض، وأنه يوجب أعظم انواع الطعن فكيف يتم مع التزام مثل هذا الطعن ادعاء كونه كتابا منتظما، فضلا عن ادعاء كونه معجزا؟ بل الحق عندي أن هذه السورة من أولها إلى آخرها كلام واحد، على ما حكى الله تعالى عنهم من قولهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ (فصلت ٥)[٣] وهذا الكلام أيضا متعلق به وجواب له، والتقدير: أنا لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم لكان لهم أن يقولوا: كيف أرسلت الكلام العجمي إلى القوم العرب؟ ويصح لهم أن يقولوا: (قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه) أي من هذا الكلام (وفي آذاننا وقر) منه لأنا لا نفهمه ولا نحيط بمعناه، أما لما أنزلنا هذا الكتاب بلغة العرب وبألفاظهم وأنتم

---

١ المصدر السابق. جـ ١٣٨/٧.

٢ محسن، عبد الحميد. **الرازي مفسرا**. ٢٣٧.

٣ الآية: ((وقالوا قلوبنا في أكنّة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون))

من أهل هذه اللغة، فكيف يمكنكم ادعاء أن قلوبكم في أكنة منها، وفي آذانكم وقر منها؟ فظهر أنّا اذا جعلنا هذا الكلام جوابا عن ذلك الكلام، بقيت السورة من أولها إلى آخرها على أحسن وجوه النظم وأما على الوجه الذي يذكره الناس فهو عجيب جدا))[١].

والرازي في بيانه لوحدة النظم والترتيب في القرآن الكريم لم يقف عند حد الآيات وترابطها في السورة الواحدة، وإنما لاحظ الترابط بين بعض السور وارتباطها بالسورة التي تليها، فعلى سبيل المثال؛ قال في أول سورة ((المطففين)) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ (المطففين ١) قال: ((اعلم أن اتصال أول هذه السورة بآخر السورة المتقدمة ظاهر، لأنه تعالى بين في آخر تلك السورة أن يوم القيامة يوم من صفته أنه: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (الانفطار ١٩) وذلك يقتضي تهديدا عظيما للعصاة، فلهذا أتبعه بقوله (ويل للمطففين) والمراد: الزجر عن التطفيف))[٢].

وفي أول تفسيره سورة (القارعة) قال: ((اعلم انه سبحانه وتعالى لما ختم السورة المتقدمة بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾ (العاديات ١١) فكأنه قيل: وما ذلك اليوم؟ فقيل: هي القارعة[٣].

ولم يلحظ الزمخشري الذي عُرف بالتفسير البلاغي ولا أي مفسر قبل الرازي مثل هذا الترابط بين أواخر السور وأوائل ما بعدها[٤]. وما ملاحظة الرازي لهذه الوجوه إلا بيان بالحجة والدليل المثبت(لدرايته العلمية) على أن هذا القرآن معجز بفصاحته ونظمه أيضا، وهو يؤكد الترتيب والترابط بين الكلمات والآيات، في أكثر من موضع. ففي تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء ٥٨) قال: ((اعلم أن الأمانة عبارة عما إذا وجب لغيرك عليك حق فأديت ذلك الحق إليه فهذا هو الأمانة. والحكم بالحق عبارة عما إذا وجب لإنسان على غيره حق فأمرت من وجب عليه ذلك الحق بأن يدفعه إلى من له ذلك الحق، ولما كان الترتيب الصحيح أن يبدأ الإنسان بنفسه في جلب المنافع ودفع المضار ثم يشتغل بغيره، لا جرم أنه تعالى ذكر الأمر بالأمانة أولا، ثم بعده ذكر الأمر بالحكم بالحق، فما أحسن هذا الترتيب لأن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط))[٥].

---

١ الرازي. **التفسير الكبير**. ج ١٣٣/٢٧؛ وانظر: محسن، عبد الحميد. **الرازي مفسرا**. ٢٣٩.

٢ المصدر السابق. ج٨٢/١١.

٣ المصدر السابق. ج ٧٠/٣١. وانظر: العماري، علي محمد حسن. **فخر الدين الرازي، حياته وآثاره**. ١٣٢.

٤ الزمخشري. **الكشاف**. ج ١٩٤/٤.

٥ الرازي. **التفسير الكبير**. ج ١٤٠/١٠. وينظر بيانه لوجه الترتيب في الآيات ج ١١٨/٨، ج ٦٥/١٣، ج ١٧٦/٢٤.

ويمكن أن نستنتج من الكلمات الأخيرة أنه يعد قضية الترتيب أعظم وجه من وجوه –فصاحة– القرآن ودلالة إعجازه [١].

ويدرس الرازي قضية التركيب القرآني، ويبرره بلاغيا. وهذه القضية مهمة جدا، لأن صحة التركيب القرآني وإثبات كماله إنما يقوم دليلا على الإعجاز الذي يهتم الرازي بإثباته، وإظهاره قويا في تفسيره. ففي تفسير قوله تعالى: ﴿ألم ذَلِكَ الكِتَابُ﴾ (البقرة ١،٢) قال: لقائل ان يقول: المشار اليه ههنا حاضر و(ذلك) اسم مبهم يشار به الى البعيد...، ولكن لا نسلم ان لفظة ذلك لا يشار بها إلا إلى البعيد. بيانه: أن ذلك وهذا حرفا اشارة، واصلهما (ذا) لأنه حرف للإشارة، قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ومعنى (ها) تنبيه، فاذا قرب الشئ أشير اليه، فقيل: هذا، أي تنبه، أيها المخاطب لما أشرت اليه فانه حاضر لك بحيث تراه. وقد تدخل الكاف على (ذا) للمخاطبة واللام لتأكيد معنى الاشارة، فقيل: (ذلك) فكأن المتكلم بالغ في التنبيه لتأخر المشار اليه عنه فهذا يدل على أن لفظة (ذلك) لا تفيد البعد في أصل الوضع، بل اختص في العرف بالإشارة إلى البعيد للقرينة التي ذكرناها، فصارت (كالدابة)، فإنها مختصة في العرف بالفرس، وإن كانت في أصل الوضع متناولة (لكل) ما يدب على الأرض. واذا ثبت هذا، فنقول: إنا نحمله ههنا على مقتضى الوضع اللغوي، لا على مقتضى الوضع العرفي. وحينئذ لا يفيد البعد ولأجل هذه المقاربة يقام كل واحد من اللفظين مقام الآخر)) [٢].

وفي سبيل بيان حسن النظم، يورد الرازي الوجه الذي يستقيم في تفسيره بناء الآية بما يليق وكلام الله تعالى، وتلك ميزة تحتاج الى تبصر واستيعاب معنوي، لترابط الكلمات. ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف ٢٠٤) قال: ((فلو قلنا أن قوله تعالى: (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا): المراد منه قراءة المأموم خلف الإمام لم يحصل بين هذه الآية وبين ما قبلها تعلق بوجه من الوجوه، وانقطع النظم، وحصل فساد الترتيب. وذلك لا يليق بكلام الله تعالى، فوجب أن يكون المراد شيئا اخر سوى هذا الوجه. وتقريره أنه لما ادعى كون القرآن بصائر وهدى ورحمة، من حيث أنه معجزة دالة على صدق محمد ^ وكونه كذلك لا يظهر إلا بشرط مخصوص، وهو أنه النبي ^ إذا قرأ القرآن على أولئك الكفار استمعوا له وأنصتوا حتى يقفوا على فصاحته، ويحيطوا بما فيه من العلوم الكثيرة، فحينئذ يظهر لهم كونه معجزا دالا على صدق محمد ^ فيستعينوا بهذا القرآن على طلب سائر

---

١ محسن، عبد الحميد. **الرازي مفسرا**. ٢٤٠.

٢ الرازي. **التفسير الكبير**. ج ١٢/٢–١٣؛ وانظر: محسن، عبد الحميد. **الرازي مفسرا**. ٢٤١.

المعجزات، ويظهر لهم صدق قوله في صفة القرآن (انه بصائر وهدى ورحمة) فثبت أنا إذا حملنا الآية على هذا الوجه استقام النظم وحصل الترتيب الحسن المفيد))[١].

ومن نافلة القول بعد هذا أن دراية الرازي للإعجاز تمثلت بوضوح في حواريته العقلية ورؤيته العلمية للوصول إلى إثبات حقيقة الإعجاز والقطع به في كل آية وفي كل سورة حتى أقام حيثيات نظرية النظم القرآني في التطبيق ومن المفيد أن نجعل مسك الختام تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (الرعد ٤٣)، قال: (اعلم انه تعالى حكى عن القوم أنهم أنكروا كونه رسولاً من عند الله ثم إنه تعالى احتج عليهم بأمرين، الأول: شهادة الله علي نبوته والمراد من تلك الشهادة: أنه تعالى أظهر المعجزات الدالة على كونه صادقا في ادعاء الرسالة، (يريد به دلائل النبوة) وهذا أعلى مراتب الشهادة، لأن الشهادة قول يفيد غلبة الظن لأن الأمر كذلك. أما المعجز فانه فعل مخصوص يوجب القطع بكونه رسولا من عند الله تعالى فكان إظهار المعجزة أعظم مراتب الشهادة. والثاني قوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ)، أراد بالكتاب القرآن، أي أن الكتاب الذي جئتكم به معجز قاهر وبرهان باهر، إلا انه لا يحصل العلم بكونه معجزا إلا لمن علم ما في هذا الكتاب من الفصاحة والبلاغة واشتماله على الغيوب وعلى العلوم الكثيرة، فمن عرف هذا الكتاب على هذا الوجه، علم كونه معجزا... ولا يُعلم كون القرآن معجزا إلا بعد الإحاطة بما في القرآن وأسراره، بيّن تعالى أن هذا العلم لا يحصل إلا من عند الله والمعنى؛ أن الوقوف على كون القرآن معجزا لا يحصل إلا إذا شرّف الله تعالى ذلك العبد بأن يعلمه علم القرآن)[٢].

نتائج البحث

نخلص من هذا إن "فخر الدين الرازي" حول مفهوم الإعجاز إلى حقيقة علمية وسمها (بالدراية) ودلل على ذلك بمنهجية علمية تعليمية رسمها في كتابه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) وضح فيها معنى فصاحة الإعجاز وجعل أنساقها العلمية متفاعلة بين اللفظ والمعنى والذي اصطلح عليه عبد القاهر الجرجاني بـ (النظم والتأليف) عمد فيها إلى تجريد مفهوم الفصاحة وحولها إلى مصطلح إعجازي يعني به المباني القرآنية الدالة على المعاني وبتعبير لا يماثل تعبير البشر.

---

١ الرازي. **التفسير الكبير**. جـ ١٥/١٠٤.

٢ المصدر السابق. ج٧/ ٥٤-٥٥.

كان منهجه –كما عرضنا– يقوم على عرض آراء سابقيه ومذاهبهم في مفهوم الإعجاز وردّها بحجج علمية عقلية منطقية ثم انتهى إلى القول: لم يبق إلا البنية اللغوية الدالة على فصاحة القرآن الكريم ونظمه وترتيبه الذي تفرد به عن كل نظم بياني، وجعل الفصاحة على قسمين: فصاحة لفظية وفصاحة معنوية، ذلك أن الألفاظ المفردة لا تستعمل إلا عند الترتيب والمركبات أصناف كثيرة، تُتصور بالصور الكثيرة وتظهر فيها الدقائق العجيبة والأسرار البيانية التي تضمنتها الأسرار البيانية للقرآن الكريم. ويعد الرازي أول من جعل الدلالة مقدمة لدراسة فصاحة القرآن وقسمها على قسمين: دلالة إفراد ودلالة تركيب، ودلالة الإفراد يريد بها الدلالة الوضعية، ودلالة التركيب ؛ هي الدلالة المعنوية التي تفضي (إلى معنى المعنى) ولذلك سمّاها الدلالة العقلية. وقد ميّز في مواضع كثيرة بين إعجاز القرآن ودلائل النبوة عند ذكره (الإخبار عن الغيوب) ولذلك فقد توهم بعض الباحثين أنه عدّ (الإخبار عن الغيوب) وجها من وجوه الإعجاز في حين عدّها الرازي من دلائل النبوة على صدق نبوة محمد ^كما أنه حول الجوانب النظرية التي قال بها في نهاية الإيجاز إلى التطبيق في تفسيره الكبير، وفصّل القول بمعنى النظم ومعنى الفصاحة وأضاف إليها مناسبة الآيات لبعضها ومناسبة نهايات السور لأوائل التي تليها ويعد أول من انتبه إلى هذه الظاهرة في القرآن الكريم من المفسرين وتداولها أغلب المفسرين من بعده .

من نافلة القول بعد هذا أن قيمة أي حقيقة علمية هي الإقرار بصحتها ومن ثم تداولها عند العلماء المعنيين بموضوعية الإعجاز، وعليه فقد تداول العلماء بعد الرازي منهجه في دراسة وجوه الإعجاز وإقرار النتيجة التي توصل إليها، بل وذهب بعضهم إلى ارتسام منهجه في تأليفه، وأخص منهم الزملكاني في كتابه (التبيان) وابن ابي الإصبع المصري في كتابه (تحرير التحبير) وكان كتاب الرازي أحد مصادره ووسمه بإعجاز ابن الخطيب وكان كتاب الرازي أحد مصادر أبو حمزة العلوي في كتابه (الطراز) وأخذ بقول الرازي في الإعجاز وحدّ الفصاحة بحدّه قال: (إن

الفصاحة عبارة عن الألفاظ باعتبار دلالتها على مسمياتها المعنوية) وهذا شئ حكاه ابن الخطيب في كتابه "النهاية"[١].

المصادر والمراجع

أحمد، عطية. (١٣٨٦هـ). القاموس الإسلامي. مصر: مكتبة النهضة المصرية.

ابن أبي أصيبعة. (١٣٧٧هـ-١٩٥٧م). عيون الانباء في طبقات الاطباء. مطبعة الاقبال.

الباقلاني، القاضي أبو بكر. (١٣٧٠هـ - ١٩٥١م). الباقلاني إعجاز القرآن بهامش الإتقان في علوم القرآن. مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي.

البغدادي، إسماعيل باشا. (١٩٥٥م). هدية العارفين. إستانبول: دار المعارف.

تاج الدين السبكي، طبقات الشافعية. المطبعة الحسينية المصرية.

الثعالبي، أبو منصور. الإعجاز والإيجاز. بيروت: دار صعب.

الجاحظ، عمر بن بحر. (١٣٥١هـ-١٩٣٢م). البيان والتبيين. تحقيق حسن السندوبي. العراق: المطبعة الرحمانية.

الجرجاني، عبد القاهر. (١٣٣١هـ). دلائل الإعجاز. تصحيح: محمد عبده ومحمد محمود الشنقيطي. القاهرة: مطبعة المنار.

الجرجاني، عبد القاهر. (١٣٥١هـ). أسرار البلاغة. تعليق: أحمد مصطفى المراغي. القاهرة: مطبعة الاستقامة.

الجزري، ابن الاثير. (١٣٠١هـ). الكامل في التاريخ. القاهرة: المطبعة الازهرية.

---

١ اليمني، يحيى بن حمزة العلوي. **الطراز المتضمن لأسرار وحقائق الإعجاز**، ٢٧٦؛ وانظر: ماهر مهدي. **فخر الدين الرازي بلاغي**. ٢٦٧-٢٧٨.

الجويني، مصطفى الصاوي. منهج الزمخشري في تفسير القرآن. القاهرة: دار المعارف.

ابن حجر، العسقلاني. (١٣٣٠هـ). لسان الميزان. حيدر آباد، الهند: دائرة المعارف النظامية.

حفني، محمد شرف. (١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م). إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق. مطابع الأهرام التجارية.

الحمصي، نعيم. (١٣٧٤هـ-١٩٥٥م). تاريخ فكرة إعجاز القرآن. دمشق.

حويش، عمر ملا. (١٩٧٢م). تطور دراسات إعجاز القرآن وأثرها في البلاغة العربية. مطبعة الأمة.

الخازن، ابن الساعي. (د.ت). الجامع المختصر. بغداد: المطبعة السريانية الكاثوليكية.

ابن خلكان، ١٩٤٨م). وفيات الأعيان. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. مطبعة السعادة.

خليف، فتح الله. (١٣٨٩هـ-١٩٦٩م). فخر الدين الرازي. القاهرة: دار المعارف.

الرازي، فخر الدين. (١٣١٧هـ). نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز. القاهرة: مطبعة الآداب والمؤيد.

الرازي، فخر الدين. (١٣٢٣هـ). لوامع البينات عني بتصحيحه محمد بدر الدين الغساني الحلبي. حلب: المطبعة الشرقية.

الرازي، فخر الدين. (١٣٥٦هـ - ١٩٣٨م). اعتقادات فرق المسلمين والمشركين. مراجعة وتحرير: علي سامي النشار. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

الرازي، فخر الدين. (١٤٢٢هـ-٢٠٠١م). الرازي التفسير الكبير. بيروت: المطبعة البهية وطبعة دار إحياء التراث.

الزركان، محمد صالح. فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية والفلسفية. بيروت: دار الفكر.

الزركلي. (١٣٧٥هـ – ١٩٥٦م). الأعلام. مطبعة كوستاتسوماس وشركاه.

الزملكاني، (١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م). البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن. تحقيق: أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي. بغداد: مطبعة العاني.

الزملكاني، عبد الواحد بن عبد الكريم. (١٣٨٣هـ،١٩٦٤م). التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن. تحقيق: الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي.

السيوطي، جلال الدين السيوطي. (١٩٦٠م). طبقات المفسرين. طهران.

شوقي، ضيف. (١٩٦٥م). البلاغة تطور وتاريخ. القاهرة: دار المعارف بمصر.

أبو عبيدة، معمر بن المثنى. (١٣٧٤هـ–١٩٥٤م). مجاز القرآن عارضه بأصوله وعلق عليه محمد فؤاد سزكين. مصر: مطبعة السعادة.

عرجون، محمد الصادق. (١٣٨٦هـ–١٩٦٦م). القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين. القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية.

عماد الدين، إسماعيل أبي الفداء. (١٣٧٤هـ–١٩٥٥م). المختصر في أخبار البشر. القاهرة: المطبعة الحسينية المصرية.

العماري، علي محمد حسن. (١٣٨٨هـ–١٩٦٩م). فخر الدين الرازي حياته وآثاره. مصر: مطابع شركة الاعلانات الشرقية.

فرانتز، روزنثال. (١٩٦١م). مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي. ترجمة الدكتور أنيس فريحة. بيروت: دار الثقافة.

ابن الفوطي، الشيباني الجنبلي. (١٩٦٧م). مجمع الآداب في معجم الالقاب. تحقيق: مصطفى جواد. دمشق: مطابع وزارة الثقافة.

القمي، عباس. (١٣٧٦هـ–١٩٥٦م). القمي الكنى والألقاب. النجف: المطبعة الحيدرية.

ابن كثير، أبو الفدا. (١٩٦٦م). البداية والنهاية. بيروت: مكتبة المعارف.

ماهر، مهدي هلال. (١٣٩٧هـ-١٩٧٧م). فخر الدين الرازي بلاغيا. بغداد: الدار الوطنية للنشر والتوزيع.

محسن، عبد الحميد. (١٣٩٤هـ-١٩٧٤م). فخر الدين الرازي مفسرا. بغداد: دار الحرية للطباعة.

المصري، ابن أبي الاصبع. (١٣٧٧هـ-١٩٥٧م). بديع القرآن. تحقيق: حفني محمد شرف. بيروت: مطبعة الرسالة.

المصري، ابن أبي الاصبع. (١٣٨٣هـ). تحرير التعبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن. تحقيق حفني محمد شرف. القاهرة: مطابع شركة الإعلانات الشرقية.

مصطفى، صادق الرافعي. (١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م). إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. ضبطه وحقق أصوله: محمد سعيد العريان. مصر: مطبعة الاستقامة.

مطلوب، أحمد. (١٣٨٤هـ-١٩٦٤م). البلاغة عند السكاكي. بغداد: مطابع دار التضامن.

ابن منظور، سالم بن مكرم. لسان العرب. القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، طبعة مصورة عن طبعة بولاق، مطابع كوستاتسوماس وشركاه.

النجار، عبد الحليم. (١٣٩٠هـ-١٩٧٠م). مذاهب التفسير، جولد تسيهر. مصر: مطبعة السنة المحمدية، مكتبة الخانجي.

الوردي، زين الدين عمر. (١٣٨٩هـ-١٩٦٩م). تاريخ ابن الوردي. النجف: المطبعة الحيدرية، طبعة ليزبك.

اليافعي، أبو عبد الله. مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان. بيروت: مؤسسة الأعلمي.

اليمني، يحي بن حمزة العلوي. (١٣٣٢هـ-١٩١٤م). الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز. مطبعة المقتطف.